تعدد الزوجات

ويشتمل على المباحث التالية:

ـ تعدد الزوجات وقصة (بيكنباور) ورأي الأَعلام في ذلك.

ـ تعدد الزوجات وهل منعُهُ في صالح المجتمع.. وموقف المرأة.

ـ حديث طريف جرى بين الدكتور السباعي وبين أحد الغربيين حول تعدد الزوجات.

ـ تعدد من الرجال، وهل يمكن ذلك؟

ـ علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وقصة قيصر كرة القدم (بيكنباور).

obeikandl.com

تعدد الزوجات

تعدد الزوجات وقصة (بيكنباور) وراي الأعلام في ذلك

لو عدنا إلى ما قام به بيكنباور بزواجه من ثلاث نساء، وإباحة الإسلام لتعدد الزوجات وباعتباره ديناً طبيعياً، فإنه لم يتمرد على أحكام الطبيعة، ثم إن الديانة المسيحية هي امتداد للديانة اليهودية من ناحية الشريعة، وأنها عالجت وهذبت انحرافها، ولم يحرم المسيح عليه السلام في حياته تعدد الزوجات بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد التعدد، فقد قال: «يلزم أن يكون الأسقف زوجاً لزوجة واحدة»[1]، ففي إلزام الأسقف وحده بذلك دليل على جوازه لغيره[2]، ربما لو لم يخش بيكنباور من قوانين بلاده التي لا يحكم حتى بالمسيحية، لكان قد أبقى عنده زوجتيه ولم يطلقهما وكان ذلك خيراً له ولأولاده ولزوجاته المطلقات.

وهذا هو التاريخ فإنه محشو بقصص أمثال بيكنباور، فقد كان لملك أيرلندة (ديارماسدت) زوجتين وسريتين، كما كان لشارلمان في فرنسا (742 ـ 814) زوجتين وكثير من السراري وهو

---

(1) راجع رسالة بولس الأولى إلى تيماتوس ، الإصحاح 3 فقرة 2 .

(2) انظر : الدكتور مصطفى السباعي : المرأة بين الفقه والقانون ، ص : 72، ط 2 ، مطبعة الأصيل، حلب، 1966م.

الإمبراطور الذي وحَّد فرنسا، وقد حدث بعد ذلك أيضاً أن المَلِكان ـ (هيس فيليب وفردريك وليم الثاني البروسي) ـ تزوجا بأكثر من واحدة بموافقة القساوسة اللوثريين. بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة 1531م نادى اللامعمدانيون في مونستد صراحة بأن المسيحي، ينبغي أن يكون له عدة زوجات، ويعدّ المورون كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلٰهي مقدس[1]، ثم استقرت نظم الكنيسة المستحدثة بعد ذلك على تحريم التعدد، بالرغم من خلو أسفار الإنجيل من ذلك[2].

وكشاهد على هذا التغيير المخترع حسب أهواء القساوسة والأحبار المسيحيين لمبدأ التعدد، فإن المسيحية المعاصرة تعترف به في أفريقيا السوداء وذلك لما رأوا في منع التعدد من الحيلولة بينهم وبين الدخول في النصرانية لذا نادوا بإباحة التعدد إلى عدد غير محدود[3]، فأعلنت الكنيسة أخيراً وبصورة رسمية السماح للأفريقيين بتعدد الزوجات إلى غير حد[4].

---

(1) انظر: العقاد: المرأة في القرآن، ص: 82 ـ ط1 ـ دار الهلال ـ القاهرة.

(2) راجع: الدكتور علي وافي: المرأة في الإسلام، ص 161 ـ ط2 ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة. والدكتور مصطفى السباعي ص 50، الطبعة الثانية 2003.

(3) راجع: تورجية، الإسلام والنصرانية في أواسط أفريقية، ص 92 ـ 98، نقلاً عن الدكتور مصطفى السباعي/ المصدر السابق.

(4) لقد تم اقتباس المراجع السابقة والنصوص من كتاب «تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟ ولماذا؟» لمؤلفه علي كامل مصطفى الحيالي.

فالإسلام حين أباح تعدد الزوجات، فإنه بذلك حلّ كثيراً من مشاكل حياة المجتمع المتطلع نحو ذرى المجد والعز، وإلّا فما البديل عن تعدد الزوجات، لا بد أن البديل هو انتشار الزنا والرذائل الأخرى في مجتمعنا الإسلامي، وعلى غرار ما تشكو منه المجتمعات الآخذة بنظام الزوجة الواحدة من العهر والفجور.

والكَيِّس ـ الفَطن ـ هو من اتعظ بغيره من حيث ما انتهى إليه، لا من حيث ما بدأ به ذلك الغير!

ومهما يكن ففطرة الله التي فطرها في البشر لا يغيّرها أحد، فلنقرأ ماذا قال الأعلام في تعدد الزوجات:

قال «دينيه» في كتابه: «أشعة خاصة بنور الإسلام»، وهو فرنسي الجنسية، وقد أسلم وسمى نفسه «ناصرالدين»: إن الإسلام لما كان ديناً طبيعياً، فإنه لم يتمرد على أحكام الطبيعة، فهو لم يرض بالرهبنة بل حرّمها، ولم يشجع على تحريم الزواج، وقد أسفر تحريم رجال الكنيسة للتعدد عن نتائج أخلاقية خطيرة من الدعارة وظهور النساء العوانس، وهي أمراض اجتماعية لم تظهر في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق.

ويضيف «دينيه» أيضاً: إنه على الرغم من محاولة الكنيسة لتحريم تعدد الزوجات، فقد ظل ملوك فرنسا يتخذون لأنفسهم أكثر من زوجة، وكانوا محل احترام رجال الكنيسة وإجلالهم.

وقال أيضا في كتاب: «محمد رسول الله»: فالواقع يشهد

بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم، وسوف يظل موجوداً ما وجد العالم، مهما تشددت القوانين في تحريمه، ولكن المسألة الوحيدة في معرفة ما إذا كان الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويُحد له، أم أن يظل نوعاً من النفاق المستتر، لا شيء يقف أمامه ويُحد من جماحه[1].

وفي فترة 20 ـ 30/ 1/ 2006 رأيت شخصياً في إحدى الفضائيات العربية، أن ميتران ـ رئيس فرنسا السابق ـ كان له خليلة وأنجب منها ابنة ـ طبعاً بنت حرام بمفهومنا ـ وكانت تتحدث لتلك القناة في مقابلة خاصة لها.. فهل كان يحق لـ(ميتران) أن لا يعترف بتعدد الزوجات في الإسلام إن سُئل؟ وإلّا فلماذا قام بذلك؛ وهذا هو دأب كثير من رؤساء العالم.. فهل لنا أن نلوم لاعب كرة قدم (فرانس بيكنباور) فيما بعد؟!

فعلى رؤساء الدول الغربية أن يشرعوا تعدد الزوجات ـ كما أمر الإسلام بذلك ـ وهو ما حرموه على شعوبهم، وإلّا أين عدالتهم؟ أين حقوق شعوبهم؟.. إذن بعد كل ما سلف، فلماذا هذا التهجم الشنيع على الإسلام الذي أباح تعدد الزوجات وحدده بشروط، واضعها هو الله جلّ وعلا.

فإذا ما عدنا إلى التاريخ نرى أنه في عام 1949م قدّم أهالي (بون) عاصمة ألمانيا طلباً إلى السلطات المختصة يطلبون فيه أن

(1) نقلاً عن كتاب: «الإسلام وتعدد الزوجات» كيف؟ ولماذا؟، لمؤلفه رعد كامل مصطفى الحيالي.

ينص الدستور الألماني على إباحة تعدد الزوجات[1]، وبالضبط بعد ذلك التاريخ الآنف الذكر بعشر سنوات طلبت الحكومة الألمانية من مشيخة الأزهر تزويدها بنظام تعدد الزوجات في الإسلام، للاستفادة منه في حل مشكلة زيادة النساء. ثم أَتبَعَ ذلك وصول وفد من علماء الألمان، اتصلوا بشيخ الأزهر للغاية نفسها، كما التحقت بجامعة الأزهر بعض الألمانيات المسلمات، لتطَّلع بنفسها على أحكام الإسلام في موضوع المرأة عامة، وتعدد الزوجات خاصة[2]، وقد سبق لهتلر زعيم ألمانيا السابق محاولة مشابهة، حيث طلب من أحد أصدقائه العرب المسلمين أن يضع له نظاماً مستمداً من الإسلام حول تعدد الزوجات. لكن قيام الحرب العالمية الثانية حالت بين هتلر وبين تنفيذ هذا الأمر[3]، وقد اكتشفت وثيقة بخط يد مارتن بورمان، نائب هتلر كان قد كتبها عام 1944م يصف فيها تفكير هتلر حول تشريع التعدد لضمان مستقبل قوة الشعب الألماني[4].

إن ما قام به (بيكنباور) من تطليق زوجتيه الأولى والثانية والزواج بثالثة، نهى عنه رسول الله ﷺ في الإسلام حيث أنه

---

(1) د.محمد يوسف موسى، أحكام الأحوال الشخصية، ص: 121 ـ 1958 ـ مؤسسة الخانجي، القاهرة.

(2) انظر: الدكتور مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، ص: 76.

(3) راجع: المصدر السابق.

(4) انظر جريدة الأهرام، في 13/ ديسمبر 1960/ نقلاً عن البهى الخولي: الإسلام والمرأة المعاصرة، ص: 93. ط 3 ـ 1968 ـ دار القلم ـ الكويت.

سمع رجلاً طلّق زوجته بغير ما أحلّ الله فقال: «**ما بال أقوام يلعبون بحدود الله يقول طلقت قد راجعت**»[1].

أما من كان شأنه أن يطلق ويتزوج، ثمّ يطلق ويتزوج، جاعلاً الزواج اللذة الجسمية فحسب، حتى إذا قضى منها وطراً ـ مدة ـ طلّقها، ليتزوج غيرها، فقد عمل عبثاً، وخرج عن الفطرة التي شرع الزواج من أجلها.

ليقرأ الزوج قول رسول الله ﷺ: «**تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات**»[2].

هكذا يضيّق الإسلام على الزوج مسالك الطلاق، حتى فيما يكره من أخلاق زوجته ويأمره بإمساكها لعله يلقى خيراً من جراء صبره. قال تعالى:

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 19] فمن يحمي حقوق المرأة ويمنع اضطهادها؟ ديننا أم الغرب؟.

تعدد الزوجات وهل منعهُ في صالح المجتمع؟ وموقف المرأة....

ما بال أعداء الإسلام يعيبون على الإسلام ما شرع من

---

(1) أخرجه ابن ماجه في (الحديث: 2017)، وذكره البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 7/ 322).

(2) ذكره ابن أبي شيبة في «مصنفه» (الحديث: 5/ 353).

التعدد؟! وما للمرأة المسلمة أن تطالب في وقتنا الحاضر بمنع تعدد الزوجات، حيث باستطاعة كل امرأة أن لا ترضى به، وأن لا تتزوج بمتزوج، وهل هناك قوة في الأرض تستطيع إرغامها على ذلك؟

طبعاً لا.. وفي استطاعة المرأة أيضاً أن تطلب الطلاق من زوجها إذا تزوج عليها، وتجاب إلى طلبها، وبالتالي هي التي تتحمل تبعات ما يترتب على ذلك.

وإنه لواضح وضوح الشمس في رابعة النهار، أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية التي أخذتها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة، وظهرت تلك السيئات على الأخص في ثلاث نتائج واقعية بالغة الخطورة، جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين.

وإن هذه الآفات والأمراض الاجتماعية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق، بل دخلتها وانتشرت فيها بعد احتكاكها بالمدنية الغربية.

إن كلام أعداء الإسلام غير واقعي في موضوع تعدد الزوجات، فإن نسبته غير معنوية إحصائياً في بلادنا. فهل تساءل الغربيون إن كانوا منصفين في كلامهم عن ضحايا الخلائل عندهم، وهل يعلمون نسبة ارتفاع أولاد الزنا هنا وهناك؟! فإن الإسلام لا يدع النساء فرائس الزنا وطرائد المخادنة.

وإذا ما تساءلنا: هل في زوال تعدد الزوجات فائدة

أخلاقية؟ إذا ما دققنا في أقطارنا الإسلامية نرى أن الدعارة تندر في تلكم الأقطار، إذا ما قُورنت بالدول الغربية (ربما زادت في أقطارنا نوعاً ما في هذه الأيام لاحتكاكنا بالمدنية الغربية) وكلما بعدت أقطارنا الإسلامية عن دينهم زادت نسبة تلك الدعارة، وبغير التعدد سوف تتفشى فيها، وتنتشر آثارها المخزية، وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل... ألا وهو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد التي يقتصر فيها الزواج على واحدة، وقد ظَهَر فيها هذه الظاهرة بوضوح، وبنسبة مفزعة وذلك عقب الحروب على وجه التحديد.

إن المجتمع الذي يتخلّى عن رسالات الأنبياء، فإنه لا ريب في ذلك أنه يكون مهدداً بغزو فكري جاهلي، وما يدريك ما يكون عليه المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه الناس في بهيمية وحيوانية، وهذا يمنعهم من الالتفات إلى فكر السماء.

واعلم أخي القارىء: كل دعوة تنادي بالتحلل ورفض الخلق السامية فهي دعوة جاهلية مهما وضعت لنفسها أسماء وشعارات براقة، كالحرية والثقافة والتقدم.... والمستهدف من هذه الدعوات المزيفة هي المرأة الحنون، لهذا أشار القرآن الكريم إلى هذه الدعوات بدعاوى الجاهلية الأولى. لذا على المرأة الحنون أن تسلك السلوك الذي يرضى به الله ورسوله، ولا شك أن ذلك السلوك يجعلها وعائلتها أن تعيشا في سعادة وهناء في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

حديث طريف جرى بين الدكتور مصطفى السباعي وبين أحد الغربيين حول تعدد الزوجات:

سافر الدكتور مصطفى السباعي حين كان موفداً إلى أوروبا سنة 1959م من جامعة دمشق في رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة، وكان ممن اجتمع بهم في لندن البروفسور (أندرسون) رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية الشرقية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن، وجرى بينهما ـ فيما جرى من الأحاديث ـ نقاش حول تعدد الزوجات في الإسلام، فيقول الدكتور السباعي:

سألني أندرسون: ما رأيك في تعدد الزوجات؟

قلت له: نظام صالح يفيد المجتمعات في كثير من الظروف إذا نفِّذ بشروطه.

قال: أنت إذاً على رأي محمد عبده بوجوب تقييده؟

قلت: قريباً من رأيه لا تماماً، فإني أرى أن يقيد بقدرة الزوج على الإنفاق على الزوجة الثانية ليمكن تحقيق العدل بين الزوجات كما طلب الإسلام.

قال: وهل مثلك في هذا العصر يدافع عن تعدد الزوجات؟

قلت: إني أسألك فأجبني بصراحة! من كانت عنده زوجة فمرضت مرضاً مُعدياً أو منفرداً لا أمل بالشفاء منه، وهو في مقتبل العمر والشباب فماذا يفعل؟ هل أمامه إلا ثلاث حالات:

أن يطلقها، أو يتزوج عليها، أو أن يخونها ويتصل بغيرها اتصالاً غير مشروع؟

قال: بل هناك رابعة، أن يصبر ويعف نفسه عن الحرام.

قلت: وهل كل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك؟

قال: نحن المسيحيين نستطيع أن نفعل ذلك بتأثير الإيمان في نفوسنا.

فتبسمت وقلت: أتقول هذا وأنت غربي؟ أنا أفهم أن يقول هذا القول مسلم أو مسيحي شرقي، فقد يستطيع أن يكف نفسه عن الحرام، لأن محيطه لا يهيىء له وسائل الاختلاط بالمرأة في كل ساعة يشاء وأنى يشاء، ولأن تقاليده وأخلاقه لا تزالان تسيطران على تصرفاته، ولأن الدين لا يزال له تأثير في بلاده، أما أنتم الغربيون الذين لم تتركوا وسيلة للاتصال بالمرأة والاختلاط بها والتأثير عليها وإغوائها إلا فعلتموها، حتى لم تعودوا تستطيعون أن تعيشوا ساعة من نهار أو ليل دون أن تروا المرأة أو تخالطوها منذ تغادرون البيت حتى تعودوا إليه، أنتم الذين يضج مجتمعكم بالأندية والبارات والمراقص، وتغص شوارعكم بالأولاد غير الشرعيين.. تَدَّعون أن دينكم يمنعكم من خيانة الزوجة المريضة! وكيف ذلك وخيانات الزوجات الجميلات الصحيحات الشابات تملأ أخبارها أعمدة الصحف والكتب، وتصك الآذان، وتشغل دوائر القضاء؟

قال: إنني أخبرك عن نفسي، فأنا أستطيع أن أضبط نفسي وأصبر.

قلت: حسناً، فكم تبلغ نسبة الذين يضبطون أنفسهم من المسيحيين الغربيين أمثالك بالنسبة إلى الذين لا يصبرون؟

قال: لا أنكر أنهم قليلون جداً.

قلت: وهل ترى أن التشريع يوضع للقلة التي يمكن أن تعد بعدد الأصابع؟ أم للكثرة والجمهرة من الناس؟ وما فائدة التشريع الذي لا يستطيع تطبيقه إلا أفراد محدودون؟

فسكت وانتهت المناقشة فيما بيننا.

أقول هذا لأبيِّن للذين يزعمون بأن الغريزة الجنسية ليست كل شيء في حياة الإنسان، وأن هنالك قيماً أثمن وأغلى كالوفاء والصبر يحرص عليها الحر الكريم، وإن تبرير التعدد بالحاجة الجنسية هو هبوط بالإنسان إلى مستوى الحيوان.. هذا الكلام وأمثاله، كلام جميل، وخيال خصب، قليل من ظل غير هذه الحضارة، ومن غير هؤلاء الذين يتكلمون هذا الكلام لو قيل من عباد زهّاد تعف ألسنتهم وأقلامهم وأعينهم عما حرم الله من زينة المرأة ومفاتنها، وأهواء الحياة وشهواتها! أما من أولئك فلا، وخير لهم أن يحترموا واقع الحياة التي تعيشها الإنسانية ويعالجوا مشاكلها بصراحة الحكيم المجرب، لا بمراوغة المجادل المكابر[1].

وهكذا أقنع الدكتور «السباعي» البروفيسور (أندرسون) في

(1) المرأة بين الفقه و القانون، د. مصطفى السباعي، ص: 58، 59، طبعة 2003.

موضوع تعدد الزوجات. إن مشكلة تعدد الزوجات إذا ما دققنا فيها فإننا نرى بصراحة: إن في عالمنا الإسلامي في الوقت الحالي لا توجد مشكلة تعرف بمشكلة تعدد الزوجات. ولقد تبينت من الإحصاءات التي تنشر في البلاد الإسلامية والعربية عن الزواج والطلاق، أن نسبة المتزوجين بأكثر من واحدة نسبة ضئيلة جداً لا تكاد تبلغ الواحد بالألف وهذه النسبة كما ذكرتها في مواضيع أخرى غير معنوي إحصائياً. فما سبب تضخيم هذه الظاهرة، ما هذه الصرخات التي تصك آذاننا حول تعدد الزوجات في عالمنا الإسلامي، إنها حملات غربية شرسة على نظام التعدد في الإسلام يشنها الغربيون، في الوقت الذي إباحَتُهُ في الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق وأنه مشروط بشروط.

تعدد من الرجال، وهل يمكن ذلك؟

كثير من الجهلاء يقولون: لماذا لا يوجد تعدد من الرجال؟

إنّ اشتراك عدد من الرجال في امرأة واحدة له مساوئ كثيرة لا يقبل بها أي عاقل، حيث إن ذلك سيؤدي إلى قلة النسل أو انعدامه، ثم إلى ضياع النَّسَبْ ناهيك عن تفشي الأمراض التناسلية، وفي الحقيقة تدل الإحصائيات أن نسبة عالية من سرطان الرحم يحدث بين النسوة اللاتي يمارسن البغاء في أمريكا والغرب بصورة عامة، والسبب يكمن في تعدد مصادر الماء (المني) في المكان الواحد أي في (فرج المرأة)، حيث أن الرجل إذا اتصل بأربع زوجات فإنه يولد له أربعة أولاد معروفي

النسب والأبوين، أما إذا اتصل أربعة رجال بامرأة واحدة فلا يولد لهم إلّا ولد واحد ـ وهذا هو ما قصدناه آنفاً من أن ذلك يؤدي إلى قلة النسل ـ ثم إن النَّسَبْ يترتب عليه كثير من الأحكام الشرعية من رعاية ونفقة وإعالة وإرث وقرابة يعين له محارمه وحلائله من أب وعمات وخالات وأخوات وبنات عم وأعمام وأخوال.. إلخ. فإذا لم يتبين النسب يُبهم كل ذلك، وربما أدى إلى أن يتزوج الولد عند بلوغه من أخته أو عمته أو خالته أو من أحد المحارم الحقيقيات اللاتي بَهُمَ على الناس حرمتهن وقرابتهن[1].

وحتى لو اتفق وافترض انتساب الولد إلى أحد من أزواج أمه فذلك ظن وافتراض غير حقيقي، لأن الحقيقة لا تعرف إلّا عند الله تعالى. فيصبح إلحاقُ هذا الولد بأي من أزواج أمه كذباً وبهتاناً لا يرتاح له الضمير ولا يجلب شفقة وحنان الأب المزعوم؛ لأنه أيضاً شاك في هذا الانتساب، فلا يحس بأي حنان تجاهه، ولا يحس بِبُنوته، ولا يشعر بأية مسؤولية تجاهه فيتركه ويهمله ولا يبالي به. وكذلك الحالة بالنسبة للآخرين فإنهم أيضاً لا يعدّونه ابنهم الصلب الذي يجلب الحنو والحنان.. فيضيع الولد بين هذا وذاك، فإما يموت ويهلك، أو يبقى في متاهات الضياع موسوماً جبينه بالعار والخزي ولعنة

(1) تعدد الزوجات في الإسلام، كيف؟ ولماذا؟، رعد كامل مصطفى الحيالي، بتصرف من المؤلف.

المجتمع، أو ينشأ منحرفاً ويكبر معقداً، ويصبح وبالاً على المجتمع وعذاباً على الناس[1].

ورُبَّ سائل يقول، لأجل حل مشكلة النسب: فلينتظر الرجال الآخرون في مواقعة الزوجة وليواقع الزوجة رجل واحد، لحين تبيان أن المرأة حملت منه.. ولكن ما هي الفترة التي تمضي إلى أن تحمل المرأة، قد تطول عدة شهور، فماذا يعمل الرجال الباقون؟ فهل ينتظرون وهل باستطاعتهم أن ينتظروا هذه الفترة الطويلة دون مواقعة زوجتهم؟ هذا محال، ولنفرض قَبِلَ الجميع بذلك، ولكن هل الطبع البشري السليم والمعاني الإنسانية الصحيحة التي لا يختلف فيها اثنان، تقبل بذلك؟ ثم إذا حملت الزوجة من الرجل الأول الذي واقعها فكيف يرضى هذا الرجل أن يواقع الرجال الآخرون بهذه الزوجة التي غرست في رحمها طفل الرجل الأول؟ في الحقيقة، إن هذه الأمور يستنفر منها طبع كل إنسان مسلم سَوِي أو غير مسلم، وفي الواقع كان عليَّ لزاماً أن أبين هذه الأمور لأني سبق أن قرأتَ في بعض الصحف أن امرأة قالت: ونحن نريد تعدد الرجال!! إنه في الواقع معادٍ للفطرة والذوق والطبع الرجولي والنسائي معاً، فهذه الأمور سموم الغرب تفرزها علينا وبالأحرى على شبابنا، ونعوذ بالله من شرهم.

وهناك شيء آخر ذكره الدكتور «مصطفى السباعي» في كتابه، وهو: «أن للرجل رئاسة الأسرة في العالم أجمع، فإذا ما

---

(1) المصدر السابق.

أبحنا للزوجة تعدد الأزواج فلمن تكون رئاسة الأسرة؟ أتكون بالتناوب؟ أم للأكبر سناً؟ ثم إن الزوجة لمن تخضع؟ أتخضع لهم جميعاً وهذا غير ممكن لتفاوت رغباتهم؟ أم تخص واحداً دون الآخرين، وهذا ما يسخطهم جميعاً. إن السؤال فيه من الطرافة أكثر مما فيه من الجدية»[1].

علاقة الرجل بالمرأة في الإسلام وقصة قيصر كرة القدم (بيكنباور)

نساء الغرب والشرق ـ المدافعين عن تحرير المرأة من حجابها ـ قالوا عن الإسلام والمرأة، بعدما توصلوا للحقيقة: إذا كانت النساء اللاتي تزوجن بيكنباور حبيبات له في الفترات التي عاشرنه، فكيف بهذا الحب المؤقت وأين حقوق المرأة هنا؟!، ولو قارناها بعلاقة الرجل بالمرأة في الإسلام فإنها شيء آخر تماماً، فالإنسان رجلاً كان أم امرأة له قيمة إنسانية لا تقدر بشيء وإنه ثروة قابلة للتناسل أو التكاثر ـ ما أروع أن يجد الإنسان من يرممه ويثمنه ويبنيه! وبذلك يحوله من إنسان كسول خامل إلى إنسان فاعل نشيط ـ . . ما علاقة كلامنا هذا بالمرأة. . والزوجة بالذات؟ إنها علاقة وثيقة يُعطي حقها من قال: «وراء كل عظيم امرأة»، فالذي قال هذا لم يخطئ. . فالمرأة العاقلة الطموحة تدفع زوجها دفعاً إلى التقدم في كل الأمور فتراها إنْ نطقت بـ(أبا فلان) تجد نفسك مرفوعاً لتقول: (أنعم به وأكرم) فهي دائمة الثناء عليه، بوجوده تضيء الجانب المعتم وبغيابه تعتم ما يجب

(1) المرأة بين الفقه والقانون، ص: 61.

أن يخفى عن الآخرين تُضيف إليه ما ينبغي أن يضاف وترفع عن كاهله ما ينبغي أن يرفع.. نموذج نصادفه في حياتنا فنغبط له ونقول هكذا هي المرأة المسلمة[1].

وفي الحقيقة كثيراً ما نرى بأن هناك جمعيات تدافع عن حقوق المرأة، ويصور ذلكم المتباكون على حقوق المرأة بأن الإسلام ظلم المرأة وجعلها وكأنها من الدرجة الثانية، ويضعون أنفسهم موضع المدافع عن المرأة في تلك الحقوق التي سلبت منهن، وبذلك يستغلون جهل البعض في فهم الآيات القرآنية فيجتزئون بعضاً من الآيات القرآنية أو يسيئون التفسير ويفسرون بما يتلاءم وأهواءهم، فيستغلون بذلك بعض الآيات التي رسم فيها الإسلام سياسة الأسرة في توزيع الحقوق والواجبات والتبعات على أساس من العدل والمساواة. فيقول البعض أن المرأة في الإسلام، ليس أكثر من تابع للرجل بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34] ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، وغيرها؛ فما صحة ذلك؟ وسأجيب عن تلك الأوهام والافتراءات فيما بعد.

نساء الغرب والشرق ـ المدافعين عن تحرير المرأة من حجابها ـ قالوا عن الإسلام والمرأة، بعدما توصلوا للحقيقة:

فلنقرأ ماذا قال أهل الغرب عن المرأة المسلمة في مقابلة أجرتها مجلة الوطن العربي (العدد 314) مع امرأة فرنسية متخصصة في الفن الإسلامي اسمها: نادية أوبيريه، قالت:

---

(1) زوجك رجل مهم، نجاة النجار، بتصرف من المؤلف.

وجدت المرأة العربية (المسلمة) محترمة ومقدرة داخل بيتها أكثر من الأوروبية، وأعتقد أن الزوجة والأم العربيتين تعيشان سعادة تفوق سعادتنا. ثم تُوجه نصحها للمرأة المسلمة قائلة: لا تأخذي من العائلة الأوروبية مثالاً لك.. لأن عائلاتنا هي نماذج رديئة لا تصلح مثالاً يحتذى.

وفي مقابلة أَجْرتها مجلة صدى الأسبوع مع (براونين موراك إيفانز)، وهي إنجليزية أعلنت إسلامها في البحرين، وكان من الأمور التي دفعتها أن تترك النصرانية وتدخل في الإسلام قالت: المرأة المسلمة دائماً في حماية ورعاية، تجد من يعيلها أينما حَلَّت، وهي جزء هام من المجتمع الإسلامي.. جو عائلي تفتقده الكثير من الأسر النصرانية الأب والأم، ثم الأولاد وبعدهم الأقارب.

العائلة المسلمة كأنها مملكة واسعة الأطراف، أما العائلة النصرانية فإنها تقتصر على رجل وامرأة فقط، طرفان لا توابع تخلفهما.. القسيس في الكنيسة يتحكم بكل شيء، ويتدخل في كل الأمور.. أما في الإسلام فلا يوجد قسيس أو وسيط بين الإنسان وربه[1].

وإذا أمعنا النظر في قول الله جلّ وعلا: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

(1) الفتوى، عدد 62، ص: 19.

وصف الباري ﷻ بأن الزوجة سكن والسكن لا بُد أن يكون هادئاً، تقرّ به العين وتطمئن إليه النفس، ومن هنا حمَّل الله ﷻ الزوجة مسؤولية ذلك، فأمرها أن تجعل من نفسها مأوى يستقر إليه الزوج، وتأتيه بلهفة بعد عناء ومشقة، فيتقابل الرجل بابتسامة وترحيب، وهذا النوع من الاستقبال لا شك أنه يغسل عن نفس الرجل كل المتاعب، فالآية الكريمة الآنفة الذكر، تبين لنا صلة النفس بالنفس في أعمق روابطها، يعقدها الله بين النفسين، لتنعما بالسكينة والطمأنينة والاستقرار والمتاع الحلال الطيب. وإن الزوجة لهي بمثابة الأمن والراحة للرجل في بيت الزوجية المحبَّب، العامر بالمودة الخالصة والرحمة الظليلة الحنون، والمرأة المسلمة الراشدة خير من يفهم هذه المعاني العالية، وخير من يعمل على ترجمتها إلى واقع مؤنس مبهج سعيد.

فهذا هو كلام الله ومن يعرض عنه سيلقى حياة تعيسة مليئة بالهموم، حيث صدق عندما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124] وها هي الفنانة المصرية التائبة (نسرين) تتحدث لنا كيف أن الفن يفسد ولا يصلح، وأن ذلك إعراض عن كلام الله وسنة رسوله، بينما يعتبره الخارجون عن حدود الله ممن يتباكون على حقوق المرأة تقدماً، فتقول:

الفن في رأيي حرام وأشبه بالمشروبات المحرمة.. إذا كان كثيرها مسكراً فقليلها حرام، التمثيل في حد ذاته تقليد وتقمص وازدواجية، وعدم مصداقية وممارسات خيالية وافتعال لمواقف

بعيدة عن الواقع، ناهيك عن التبرج والاختلاط والتزين للأجانب، وكلها أمور مشينة وتؤدي إلى التهلكة والعياذ بالله. هكذا تحدثت الفنانة نسرين وتضيف: من خلال تجربتي وجدت أن الفن مجال لهو ولغو وبعيد عن الإسلام وقِيَمه، وفيه اتباع للهوى ومضيعة للوقت، وفيه إيذاء للمرأة وإهانة لها.. لقد استنتجت أن الفن يهدف ـ من خلال عملية منظمة ـ إلى ترسيخ نمط من السلوك المنحرف في وجدان المشاهد المسلم وعقله لإبعاده عن دينه وتمييع الحلال والحرام في عقله ووجدانه.

وتفسر نسرين ظاهرة اعتزال النساء دون الرجال للفن بقولها: المرأة كما خلقها الله أكثر عاطفية وأكثر ضعفاً، وقسوة الحياة تؤذيها أكثر فأكثر. الأعمال الفنية وما يصاحبها من شهرة ومال قد تغري المرأة فتنساق وراءها بلا داع، ولكنها عندما تخلو مع نفسها تتنازعها فطرتها وتدرك أن ما تقوم به ليس حلالاً، وبالتالي تغلب الفطرة نوازع الشر في نفس البشرية فتبتعد عن الحرام.

وهذه اعترافات امرأة غربية أخرى نشرتها مجلة الفتوى ـ عدد 77 سنة 1999 ـ ونقلت هذه الاعترافات أصلاً من مجلة الأسرة الصادرة في هولندا ـ عاشت ظاهرة الحرية الواسعة وهوس الاندفاع نحو المساواة بالرجل.. فلم تجد ما يحقق وجودها باعتبارها إنساناً وباعتبارها أنثى وفق ما قررته لهما الفطرة، وما هيأتها له طبيعة تكوينها وما جبلت عليه من خصائص غير الإسلام لتؤدي الأمانة وتحقق الحكمة في رعاية أقدس الروابط، وأشرف

القيم من الأمومة ومودة ورحمة ورفد للحياة بمن يصنعون الحياة، ويعمرون الأرض، ويحققون وظيفة الخلافة كما أمر الله وأراد، حيث تقول وتحت عنوان «المجتمع أَوهَمَ المرأة»: يمكنني أن أعرض تجربتي الشخصية وأسباب رفضي للحرية التي تدعي النساء في هذا المجتمع، إنهن يتمتعن بها ويؤثرنها على الدين الوحيد الذي حرر النساء حقيقة مقارنة بنظيراتهن في الديانات الأخرى... لقد كنت أطعن في هذا الدين؛ لأنه كما كنت أعتقد أنه دين متعصب للرجل على حساب المرأة وقائم على التمييز بين الجنسين، وأنه دين يقمع المرأة ويهب الرجل أعظم الامتيازات. كل هذا اعتقاد إنسانة لم تعرف عن الإسلام شيئاً.. على أنني ورغم انتقادي للإسلام، فقد كنت داخلياً غير مقتنعة بوضعي كامرأة في هذا المجتمع، وبدا لي أن المجتمع أَوهَمَ المرأة بأنه منحها (الحرية)، وقبلت النسوة ذلك دون الاستفسار عنه. لقد كان هناك تناقض كبير بين ما عرفته النساء نظرياً، وما يحدث في الحقيقة تطبيقياً.. لقد كنت كلما ازداد تأملي أشعر بفراغ أكبر، وبدأت تدريجياً بالوصول إلى مرحلة كان عدم اقتناعي بوضعي فيها كامرأة في المجتمع انعكاساً لعدم اقتناعي الكبير بالمجتمع نفسه. وبدا لي أن كل شيء يتراجع إلى الوراء. رغم الادعاءات لقد بدا لي أنني أفتقد شيئاً حيوياً في حياتي، وأن لا شيء سيملأ الفراغ الذي أعيش فيه وأخذت أفكر في حياتي وبعقيدتي التي لم تحقق لي شيئاً، وأخذت أتمعن في الدين الإسلامي..

لقد تركز اهتمامي على النظر في القضايا ذات العلاقة بالمرأة في الإسلام وكم كانت تلك القضايا مثار دهشتي، فكثير مما تعلمت وقرأت، علمني الكثير عن ذاتي كامرأة. وأين يكمن القمع الحقيقي للمرأة في نظام آخر وطريقة حياة غير الإسلام الذي أعطى المرأة كل حقوقها في كل منحى من مناحي الحياة. ووضع تعريفات بيّنت دورها في المجتمع كما هي الحال بالنسبة للرجال، ودون أن يلحق أي ظلم بأي منهما. يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

وتقول (لورا فيشيا فاغليري) في كتابها[1]: ولكن إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا مكانة رفيعة، فإن مركزها، شرعياً على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جداً ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي.

وقالت (أنى بيزنت) زعيمة التيوصوفية العالية في كتابها «الأديان المنتشرة في الهند»: ما أكبر خطأ العالم في تقدير نظريات النبي محمد ﷺ فيما يتعلق بالنساء، فقد قيل: إنه قرر بأن المرأة لا روح لها! فلماذا هذا التجني على رسول الله؟ أعيروني أسماعكم أُحدثكم عن حقيقة تعاليمه في هذا الشأن.

جاء في القرآن: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ

(1) دفاع عن الإسلام، ص: 106.

أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124]. وبعد أن سَرَدت كثيراً من الآيات القرآنية التي تحث على رعاية المرأة وإكرامها قالت:

«ولا تقف تعاليم النبي ﷺ عند حدود العموميات، فقد وضع قانوناً لوراثة النساء، وهو قانون أكثر عدلاً وأوسع حرية من ناحية الاستقلال الذي يمنحها إياه من القانون المسيحي الإنجليزي الذي كان معمولاً به إلى ما قبل عشرين سَنة، فما وضعه الإسلام للمرأة يعدّ قانوناً نموذجياً فقد تَكَفَّلَ بحمايتهن في كل ما يمكنه، وضمن لهن عدم العدوان على أية حصة مما يرثنه عن أقاربهنَّ وإخوانهن وأزواجهن»[1].

(1) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، ص: 290، نقلاً عن: د. مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، 2003.